۱۶۶۲۱

مجله	التضامن الاسلامی
تاریخ نشر	جمادی الاولی ۱۳۹٤
شماره	یازده سال بیست و هشتم
شماره مسلسل	
محل نشر	مکهٔ مکرمه
زبان	عربی
نویسنده	عبدالله شحاته
تعداد صفحات	۶۸۲ - ۶۸۷
موضوع	دروس من سورة یونس
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحضات	

الدرس من سورة يونس

د. عبد الله شحاتة

نزلت سورة يونس بعد سورة الاسراء ، وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الاسراء والهجرة ، فهى سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة .

وقد سميت بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

أهدافها الاجمالية :

موضوعات هذه السورة هى موضوعات السور المكية الغالبة ، وهى الاقناع بالعقيدة والتوجيه الى آيات الله الكونية ، والى سنن الله فى الارض والى العظة بالقرون الخوالى ومصائرها ، وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذى تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية التى تنتقل بالانسان من آيات الله فى الكون الى آياته فى النفس ، الى مشاهد القيامة المؤثرة ، الى قصص الماضين ومصائرهم ، كأنها جميعا حاضرة معروضة للانظار .

وهذه السورة تتضمن شيئا من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض الى غرض بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كله هو هذا الجو ، حتى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها فى أغلب الأحيان .

الدرس الاول ـ مظاهر قدرة الله :

يبدأ القسم الأول من السورة بحروف ثلاثة هى : الف ، لام ، را . كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بحروف مشابهة ، ذكر العلماء أنها أسماء للسورة ، أو اشارة الى أسماء الله تعالى وصفاته ، أو هى لبيان اعجاز القرآن الكريم ، او هى مما استأثر الله تعالى بعلمه .. ثم تأخذ السورة فى عرض عدة أمور ، هى بيان حكمة القرآن وطريقته فى تنبيه الغافلين الى تدبر آيات الله فى صفحة الكون وتضاعيفه فى السماء والأرض وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار .. وفى مصارع القرون الأولى .. وفى قصص الرسل فيهم .. وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود ..

ثم تشرح السورة الحكمة فى الايحاء الى رجل من البشر يعرفه الناس ويطمئنون اليه ويأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج .. وتذكر الحكمة من ارسال الرسل .

فالانسان بطبعه مهيأ للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز ، ولكن هذا العقل فى حاجة الى ميزان مضبوط يعود اليه دائما كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات ، وجذبته التيارات والشهوات . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته .

وتلفت سورة يونس النظر الى خلق السموات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، واظهار قدرة الله (**الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل**) وقدر اختلاف الليل والنهار ان الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق به أن يكون ربا يعبد ولا يشرك به شىء من خلقه ..

ان هذا الليل المظلم ، الساكن الا من دبيب الرؤى والاشباح .. وهذا الفجر المتفتح فى نهاية الليل كابتسامة الوليد ، وهذه الحركة التى يتنفس بها الصبح فيدب النشاط فى الحياة والاحياء ، وهذا الطير الرائح الغادى القافز الواثب الذى لا يستقر على حال .. وهذا النبت النامى المتطلع أبدا الى النمو والحياة ، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق .. وهذه الارحام التى تدفع ، والقبور التى تبلع والحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله ..

ان هذا الحشد من الصور والاشكال ، والحركات والاحوال والرواح والذهاب والبلى والتجدد والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار .. ان هذا كله ليستنهض كل همة فى كيان البشر للتأمل والتدبر والتأثر حتى يستيقظ القلب ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة فى ظواهر الكون وحنايا ، والقرآن الكريم يعمد مباشرة الى ايقاظ القلب لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات وتأمل قدرة الله فى اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر فيطول الليل فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ويطول النهار فى الصيف ويقصر فى الشتاء .. ووراء كل ابداع يد الله القدير الذى رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ، وبسط سبحانه الأرض وثبتها بالجبال وزينها بالنبات وأحياها بالأمطار (**ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**) يونس ـ ٦ .

الدرس الثانى ـ الادلة على وجود الله :

يستهل الدرس الثانى من سورة يونس باعلان جزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين ، حيث يقول سبحانه (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**) يونس / ٢٦ . فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحا فى الدنيا أدخله الله الجنة ومتعه بالطيبات ونجاه من النار .

ثم تستمر الآيات فى بيان عقوبة المكذبين ، وجزاء الخائنين ، وتسوق السورة عددا من الأدلة والبراهين تنتهى كلها الى هدف واحد هو اشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط فى الجزاء ٠

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها الى آفاق الكون فى جولة واسعة شاملة ٠٠ جولة من الأرض الى السماء ومن آفاق الكون الى آفاق النفس ومن ماضى القرون الى حاضر البشر ومن الدنيا الى الآخرة ٠

وقد لاحظنا فى الدرس الماضى لمسات من هذه ، ولكنها فى هذا الدرس أظهر ٠٠ فمن معرض الحشر الى مشاهد الكون الى ذات النفس ، والى التحدى بالقرآن ، الى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لمحة عابرة من الحشر فى مشهد جديد الى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، والى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء ، الى بعض آيات الله فى الكون ، الى الانذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب ٠

انها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة الا تستجيب لها ، وألا تتذاوب الحواجز والموانع فيها ، دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود ٠٠ لقد كان الكفار صادقين فى احساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع اليه خيفة أن يجرفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين ٠

وان سورة واحدة كهذه أو بعض سورة لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق ٠

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ، ليسير بها نحو الايمان ، وساق اليها أدلة محسوسة ملموسة حيث يقول سبحانه **(قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟)** من المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ، فمن سطح الأرض أرزاق ومن أعماقها أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ٠ حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق ٠ **(أم من يملك السمع والأبصار ؟)** يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها او يمرضها ويصرفها الى العمل أو يلهيها ٠٠ وأن تركيب العين وأعصابها وكيفية ادراكها للمرئيات أو تركيب الاذن وأجزائها وطريقة ادراكها للذبذبات لعالم وحده يدير الرؤوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك الى أدق الأجهزة التى يعدها الناس من معجزات العلم الحديث ٠

(ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟) أى النور من الظلام والظلام من النور ، والنهار من الليل والليل من النهار ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والنبتة من الحبة والحبة من النبتة ، والفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ ٠٠ الى آخر هذه المشاهدات العجيبة ، والا

فأين كانت تكمن السنبلة فى الحبة ؟ وأين كان يكمن العود وأين كانت الجذور والساق والاوراق ؟

ومن يدبر الأمر كله فى هذا الذى ذكر وفى سواه من شئون الكون وشئون البشر ؟ من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ٠٠ ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر **(فسيقولون الله فق ل: أفلاتتقون)** يونس/٣١ ٠ أفلاتخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض والذى يملك السمع والابصار ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، الذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه **(فذلكم الله ربكم الحق)** هو سبحانه صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ٠

الدرس الثالث ـ قصص الانبياء :

اشتملت الآيات من ٧١ ـ ٩٣ من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون وملته ٠٠ وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص فى القرآن يجىء فى السياق ليؤدى وظيفة فيه ، ويتكرر القصص فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع ٠ وتلاحظ فيما عرض من قصتى نوح وموسى هنا ، وفى طريقه العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بايمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما تلحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه ٠٠

قصة نوح :

بدأت قصة نوح من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الانذار الطويل والتذكير والتكذيب ، ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة فى سور أخرى ٠٠ لأن الهدف هنا هو ابراز التحدى الذى واجه نوحا من قومه ، واستعانته بالله ، ونجاته ومن معه وهم قلة وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة ٠٠ لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التى يقصها الى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة الى نتائجها الأخيرة وهى نجاة نوح ومن آمن معه فى السفينة واستخلافهم فى الأرض على قلتهم ، واغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم ٠٠ قال تعالى **(فكذبوه ٠ فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين)** يونس/٧٣ ٠

وأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، واذا كانت قصة نوح قد ذكرت فى أربع آيات فقط هى الآيات من ٧١ الى ٧٤ من سورة يونس ، فان قصة موسى قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثمانى عشرة آية هى الآيات من ٧٥ الى ٩٣ . وقد ألمت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين فى مكة من الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القلة المؤمنة التى معه .. وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى مقسمة الى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى هذه السورة على النحو الذى عرضت به . وهذه المواقف الثلاثة تتتابع فى السياق على هذا النحو :

أولا – وصول موسى الى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت فى سورة الأعراف ولكنها لم تذكر فى سورة يونس ولم تفصل ، لأن السياق لا يقتضيها ، والاجمال فى هذا الموضع يغنى ، والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله ، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى (**ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : ان هذا لسحر مبين**)

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة ، وأرادوا أن يغرقوا الجماهير فى صراع السحر بأن تعقد حلقة للسحر يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس الا ساحرا ماهرا .

والموقف الثانى موقف المبارزة بين السحرة وموسى ، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وتحركت الحبال والعصى فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ، ثم ألقى موسى عصاه فى الأرض فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ، شفة فى الأرض تبتلع جميع الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ، وشفة مرفوعة الى أعلا .. ثم أمسك موسى بعصاه فعادت كما كانت ، وبطل السحر وعلا صوت الحق .. ولكن السياق يختصر المشاهد هنا لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال ، ويسدل الستار ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل ، وهذا احدى عبر القصة المقصودة .

(**فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم**)

وفى هذا الموضع تفيد الآيات أن الذين أظهروا ايمانهم وانضمامهم لموسى من بنى اسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الاسرائيلى وأنهم تعرضوا للارهاب من فرعون ولكن موسى ثبتهم على الايمان ودعا موسى ربه أن ينجى المؤمنين وأن يهلك الكافرين ، فاستجاب الله دعاءه

وجاء الموقف الحاسم والمشهد الثالث والأخير فى قصة التحدى والتكذيب ، وهو غرق الطغاة الظالمين ونجاة من آمن بالمرسلين . قال تعالى (**وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر**) بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا (**فاتبعهم فرعون وجنوده**) لا اهتداءا وايمانا ولكن (**بغيا وعدوا**) ، (**حتى اذا ادركه الغرق**) وعاين الموت ، ولم يعد يملك نجاة (**قال : آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين**) ..

ولكن الايمان جاء فى وقت متأخر ، لا اختيار فيه ولا فرار قال تعالى : (**آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين**) أى أتؤمن الان بعد الفساد والعدوان (**فاليوم ننجيك ببدنك**) لا تأكله الاسماك (**لتكون لمن خلفك آية**) وعبرة لمصير الظالمين ونهاية المعتدين (**وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون**) يونس ٩٠–٩٢ .

د . عبد الله شحاته
المدرس بجامعة القاهرة
كلية دار العلوم